الخلق فى الأدب والتاريخ

مسألة الخلق الفنى أو ابتكار الشخصيات فى الأدب ليست من المسائل الواضحة التى يسهل الإحاطة بها وإخضاعها لأساليب البحث العلمى وطرائق المنطق ، وليست بالموضوع الذى يصلح لكتابة المذكرات المسهبة والتقارير الوافية ، وإنما هى مسألة يكتنفها الخفاء ويحفها الإبهام ، وليس من الميسور تحديدها والإلمام بأطرافها . والخلق فى الأدب كالخلق فى الحياة غامض السر خفى الشأن ، وقصارى ما يستطيع الإنسان حياله أن يرسل فى نواحيه القاتمة الخواطر والأفكار ، كلمعات الضوء فى الضباب الحالك والدجن المطبق .

وفى الحياة ضرب من الوحدة وراء مظاهرها المتعددة وأزيائها المختلفة ، لأنها قائمة على أساس مشترك ، وهو النشاط الحيوى أو الحيوية الموزعة بين الأحياء ، ويتكون من هذا النشاط الكامن فى الأحياء جوهر وجودهم ولباب كيانهم ؛ وقد سماه شوبنهاور «إرادة الحياة» وسماه هارتمان «اللاوعى» وأطلق عليه برجسون اسم «الدافع الحيوى» ، وهذه القوة الحيوية المشاعة بين الأحياء هى التى تمكننا من أن نشارك الأحياء شعورها ونبادلها العطف ونشاطرها السرور والألم ، ومن هذه المشاركة الأساسية والتعاطف المتبادل تتكون التجارب وتتم المشاهدات ، ومن شأن هذه المشاعر المستوعبة والأحاسيس المتجمعة أن تزود العقل الباطن بطرائف الإحساسات وغرائب المدركات ، ويكاد العقل الباطن أن يكون مستودعاً مكتظاً بتلك التجارب الواردة إليه من مختلف الحواس وشتى المشاعر ، فسراديبه حافلة ، ومسار به ممتلئة ، وفى كل لحظة من لحظات الحياة

تزداد هذه التجارب وتتكاثر تلك الثروة .

وعقلنا الواعى لا يستطيع أن يستثمر هذه الثروة الطائلة جميعها ، وإنما يتخير منها وينفق من أرباحها ، وما نسميه القوة المبدعة الخالقة فى الأدب والفن هو قدرة خارقة غير مألوفة على الغوص فى أعماق العقل الباطن ، واستخراج النفائس منه ، والإفادة من ثروته والانتفاع بثمرات تجاربه المختزنة ، وعجائب مشاهداته المحفوظة ، مع توفر الاستعداد وتهيؤ القدرة على تنسيقها وتنظيمها والملاءمة بينها ، والعبقرية الفنية الخالدة هى استعداد أكثر من المعتاد على تكوين صور فنية أو قطع موسيقية أو روايات أو قصائد شعر من تلك الثروة الدفينة .

ولتوضيح عملية الخلق بعض التوضيح أبدأ بالحديث عن كتابة التراجم ، ففى كتابة التراجم على المؤلف أن يكسو الهيكل العظمى ثوب اللحم والدم ، ويزيل عنه غبار الأجيال والقرون ويرد إليه الحياة ويسترجع صورة العصر السالف ، فعمله من ناحية الخلق والإيجاد يعد بمثابة استكمال للوجود واستيفاء لشرائطه ، فهو أقرب إلى طبيعة عمل المصور الذى ينحصر جهده فى إبراز خصائص الأنموذج الماثل أمامه والكشف عن شخصيته ، ويختلف عن خلق الأشخاص فى المسرحيات والروايات ، وهو يعرض الشخصية المعروفة فى ضوء جديد وثوب قشيب ، ويضعها فى الموضع الذى يلائم مزاجه الفنى وإدراكه للجمال ، وهو يستهدى فى عمله بالوثائق التاريخية والمراجع والنصوص ، وعمله متصل بالعقل الواعى النافذ أكثر من اتصاله بالعقل الباطن ، وهذا هو الفرق بين خلق الروائى وخلق كاتب التراجم ، فالمترجم يعمل تحت ضغط الوعى ، والمؤلف الروائى يعمل على ضوء العقل الباطن ، وقد حاول بعض كتاب التراجم فى العصر الحديث مزج الطريقتين رجاء الإغراب والتشويق ، ولكن

الإمعان فى هذا الأسلوب لا يخلو من خطر على التاريخ ، وهو يغرى بعض الناس بالإعراض عن المراجع الصحيحة ، وتقبل الروايات المتوهمة والأخبار المشكوك فى صحتها ، والفضيلة التى يحسن إكبارها فى كاتب التراجم هى الأمانة الجاهدة فى كشف الخبـــــايا واستثارة الدفائن ، وحسن الاختيار فى انتقاء الحوادث الدالة والأخبار الموحية وتكوين صورة أقرب ما تكون إلى الأصل فى نظر العارفين والدارسين ، وبطبيعة الحال ستتلون الصورة بمزاج المؤلف وتبدو عليها أثر شخصيته ، ولكن كلما قل تأثر الصورة بلون المزاج وظل الشخصية كان ذلك أجدى على التاريخ وأقرب إلى دقة التصوير وصدق الأداء ، وكتابة التراجم نعتمد على النقد والخلق معاً ، ولكن النقد قائم على التجرد التام والتعلق بالحق لا الاسترسال مع نزعات النفس والاندفاع فى سبيل الأهواء ، وهذا هو سبب ندرة الإجادة فى النقد وكتابة التراجم ، وكاتب التراجم مطالب بأن يكبح أهواءه ويقمع ميوله ، ولكن عليه مع ذلك أن يظل مالكا لقدرته على التلوين والتصوير وأن يتخلص من سلطان الأحكام المألوفة ورق عبادة الأجداد وتمجيد القدماء ، ويرتفع فوق نوازع التحيز والتعصب ، فطريقه حافل بالأخطار ويستلزم مقداراً غير يسير من الشجاعة الأدبية ، والثقة بالنفس ، والقدرة على تخطى الفجوات الفاغرة ، ورياضة الصعاب المعترضة ، والمزج بين العطف والنقد والموازنة بينهما هى سر التراجم البديعة الخالدة .

وخلق الأشخاص فى المسرحيات يتجه أول ما يتجه إلى جعل الشخص ملائما «لعقدة» الرواية وحبكتها المسرحية ، صالحاً للظهور على المسرح ، والمؤلف مقيد إلى حد كبير فى تصوير أشخاصه بطرائق الإخراج وطاقة المسرح ، فهو لا يملك حرية الروائى ، ومن ثم كانت أشخاص الروايات فى الأعم الأغلب أوفر حياة وأوفى شخصية من أشخاص المسرحيات ، لأن قوة الفنان

المبدعة تجد من المسرح ما يحدها وينال من حريتها ، وهذا مما يجعل معرفة دقائق المسرح عنصراً هاماً فى تأليف الروايات المسرحية ، وخلق الأشخاص فى الروايات أكثر تحرراً من القيود وأنأى عن الضرورات ، والمجال فيه أوسع والمدى مترامى الحدود منبسط الرقعة ، على أن هذا الحرية تجعل تأليف الروايات أكثر جاذبية وأعظم صعوبة فى الوقت نفسه ، وموقف الروائى يختلف عن موقف كاتب التراجم . فليس أمام الكاتب الروائى مسرح ليتحكم فى خياله ويسيطر على حوادثه ووقائعه ، وإنما هو يتلقى وحيه من حادثة خاصة أو شخص معين يؤثر فى نفسه ويثير خياله ويحرك عقله الباطن من أعماقه ، وتبدأ من ثم جرثومة الخلق وتنمو وتتزايد وتتكون حولها التأثرات المناسبة الناعسة فى طوايا العقل الباطن حتى تستتم الجرثومة حياتها ، ويتكامل تكوينها ، وتفرض عليه التعبير عنها وإطلاقها من سجنها بالقلم الموفق والحروف المسطورة .

ولقد تحدث الكاتب الروسى الروائى ترجنيف عن طريقة خلقه لشخصية بازاروف بطل رواية «آباء وأبناء» فذكر أنه التقى فى أحد أسفاره بالقطار بطبيب ناشئ لمح فيه طرازاً جديداً من الناس وتمت الرحلة ولم يره بعدها ، ولكنه ترك فى نفسه أثراً قوياً فظل يتصور أسلوب حياة هذا الشاب ونهج تفكيره ويدون ذلك فى يومياته لمدة أشهر حتى صار يعتقد أنه قد أدرك مشاعر هذا الشاب وسلوكه فى مختلف المواقف وأصبحت شخصيته عنده معروفة المعالم واضحة السمات . وشرع بعد ذلك يكتب روايته المشهورة . وقد أدرك ترجنيف من فحاوى حديث الشاب أنه فوضوى المذهب . فعمد إلى خلق الجو المناسب لإظهار شخصيته وآرائه ومذهبه . على أن أكثر نقاد ترجنيف أخذوا عليه أن عقله الواعى كان له أثر مذكور واضح فى خلقه وأنه كان يعتمد إلى حد كبير على حسن الاختيار وبراعة التنسيق ، ولذا ينقص بعض رواياته الحيوية القوية

والطلاقة والحرية . وهى سمات الخلق المستمدة من العقل الباطن الذى يجود بسخاء ويضع كل مدخراته تحت تصرف العقل الواعى ويصدق فيه قول أبى تمام :

ولو كان يفنى الشعر أفنته ماقرت حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه فيض العقول إذا انجلت سحائب منه أتبعت بسحائب